

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الوعى الجمالى فى شعر حافظ الشيرازى (١)

عبدالفتاح قلعة جى

مناخات الوعى الجمالى ومصادره:

„كمنت خيول الحادثات فى كل النواحي والأرجاء  
من أجل ذلك جرى فارس العمر مقطوع العنان والرجاء  
انى أعيش من غير عمر، فلاتعجب كثيرا لهذا الأمر  
فمن ذا الذى يستطيع أن يحتسب أيام الفراق فى عداد العمر  
وياحافظ . . . قل لنا حديثا طيبا من أحاديثك

فسيبقى نقش قلمك على صحيفة العالم تذكارا للعمر، (٢).  
بهذه الأبيات لخص شاعر ايران الكبير حافظ الشيرازى العصر  
والانسان والطريق : عصر دموى قلب، وانسان يلاحقه الموت فى كل  
مكان ، فارس عمره مقطوع العنان والرجاء ، أما الطريق فهو الذى  
نقشه حافظ بقلمه على صحيفة العالم، انه الحب .

القرن الثامن الهجرى شهد أعنف الاضطرابات والأحداث فى  
ايران، حيث تسيطر على الحكم سلالات مغولية من أحفاد جنكيز خان،

عصر ابتداء بحكم أبى سعيد آخر الملوك الأقوياء من المغول الايلخانيين، وانتهى بزحف تيمور لنك واكتساحه بلاد ايران والعراق واحتلاله الشام فى مطلع القرن التاسع وانتصاره المذهل على سلطان العثمانيين بايزيد.

كان دخول تيمور لنك مدينة شيراز معشق الشاعر عام ٧٨٩ هـ حدثا رئيسيا مؤلما فى حياة حافظ الذى كانت شمس عمره تؤذن بالغروب سكت خلاله فلانجد فى غزلياته مايشير الى استقبال الشاعر لهذا الغازى الأجنبى، أما اللقاء الوحيد بينهما فكان لقاء لوم من تيمور لنك وحسن تخلص من الشاعر (٣).

الحياة والطبيعة فى شيراز كانتا حافظتين بمصادر القبح والجمال :  
شيراز الجميلة بأهلها الطيبين ، وطبيعتها الغناء ونسيمها العليل  
وأطيافها المغردة وحسانها الفاتنات ونهر ركناباذ الذى يقول فيه  
الشاعر :

،،لاتعب شيراز وركناباذ وهذا النسيم العليل  
ولاتقلل من شأنها، فهى الخال على خد الأقاليم السبعة  
ما أبعد الفارق بين ماء الخضر الذى مكانه فى الظلمات  
وبين نهرنا الذى منبعه الله أكبر ،، (٤).

لكن مصادر القبح السياسى والاجتماعى فى شيراز حيث يحكم آل المظفر، أو فى ايران كلها آنذاك كانت كثيرة ومروعة، وكان محورها جميعا الصراع على السلطة والثروة، الأب يقتل ولده أو يكسده له، والأبناء يسملون عيني أبيهم ويسجنونه حتى الموت، والأخ يحارب أخاه، والوزير الحاكم يظهر التقوى والورع ويخفى البطش والتنكيل ، يقرأ القرآن فى معتكفه ثم يخرج ليعدم بيده عشرات المتهمين ثم يغسل يديه من دم ضحاياه ويعود ليتابع قراءة القرآن، (٥) ومعارك

لا تتوقف ترك خلفها جثث القتلى ومشوهى الحرب، والجوع والمرض،  
وشيراز تحاصر فلايكفى النهار المحاربين فيستمرون فى القتال على  
ضوء الشموع والقناديل، وأمير يحصل أموال كرمان فلا يرسلها الى  
بيت المال وانما ينفقها عن آخرها فى اللهو والشراب، وغنى يزيد  
الأثرياء تجبرا، وجوع يحاصر الطبقات المحرومة ، والنفاق والرياء  
وحبك المؤامرات هى الأخلاق السائدة فى عصر تسوده القسوة  
والاستبداد ولغة الدم. وبعد موت الشاه شجاع بلغ الصراع بين أبنائه  
أقصاه حتى تمنى حافظ لشيراز حاكما قويا عادلا عارفا كرستم بيدل  
هذا العالم وينشئ خلقا جديدا، ويصلح هذا الدهر الفاسد، حتى اعتقد  
أن قدوم تيمور لنك قد يزيل هذه الشرور .

،، أن صدرى يفيض بالآلام فهل من مرهم مجرب

وان قلبى يضيق بالوحدة، فهل من صديق مقرب

أنها أيام هوجاء، وأمور سوداء، وعالم فى اضطراب

فاحترقت فى صبرى وأنا أتطلع الى شمعه من تركستان

ولكن مليك الأتراک خالى الذهن عنها، فهل من رستم فى ايران

فقم الآن حتى نتجه الى تركى سمرقند الكبير

فعبير جيحون يهب نسيمه كشدى الورد النضير،،(٦).

وجاء تيمور لنك، ورأى الشاعر المجازر التى ارتكبتها تركى سمرقند

فى خوارزم فارتاع وأدرك انه كان مخطئا حين أسلم قلبه لحسان

الأفكار:

،، حذار أن تسلم قلبك الى الحسان يا حافظ

وخذ موعظة من هذا الغدر الذى فعله أتراك سمرقند مع اهل

خوارزم،، (٧) .

ولكى نعرف منطلقات دعوة حافظ لابد أن نرسم حدود مضيع  
الخرابات فى بلده ابان القرن الثامن الهجرى :

- (١) فى الميع الأعلى سلطة حاكمة قسوتها على الشعب ليست بأقل قسوة فى صراعاتها مع بعضها فى سبيل التفرد بالحكم، والقيمة الجمالية المسيطرة هنا هى الذرائعية فى أكثر وسائطها الدموية عنفا.
- (٢) فى الميع الأسفل عامة الناس وقد سلبوا حرية الرأى، وسيطر عليهم الخوف من التنكيل فتعودوا الخضوع وتشبثوا فمهم أدوات للحاكم المسيطر، والقيمة الجمالية هنا هى التملق والنفاق والمراعاة .
- (٣) فى الجانب بؤس اقتصادى يصل الى حد الفاقة والعوز، يقابله رفاه شديد وتمركز رأس المال فى أيدى طبقة من التجار والهباشة العسكر والمقربين الى السلطة.
- (٤) فى جانب ثان تمالك شديد على المتع الحسية والجسدية ، والقيمة الجمالية المسيطرة هنا هى اللذة فى مفهومها الغريزى.
- (٥) فى جانب ثالث تعصب دينى متطرف لا يقوم على أساس ايمانى بقدر مايقوم على أساس المراعاة والنفاق ، وكثير مايشير حافظ فى غزلياته الى هذه الظاهرة:

،،لقد أقفلوا باب الحانة، فلا ترض بذلك، يا الهى

لأنهم يفتحون بذلك باب التزوير والرياء،،

- (٦) فى جانب رابع مشاهد القتل والتدمير وهى التى دفعت الشاعر الى أن يتمنى الخلاص على يد تركى سمرقند.

كيف يمكن لحافظ أن يواجه تلك الخرابات فى النفس الانسانية والحياة وهو الانسان الفرد من غير أن يطاله أذى الطواغيت، وهو القائل:

،،وصحبة الحكام هي ظلمة ليل الشتاء الطويل  
 فابحث عن نور الشمس فربما يطلع عليك بشعاعه الجميل  
 وعلى باب من لا مروءة له في هذه الدنيا  
 الى متى تجلس وتقول: متى يقبل السيد الى هذا الباب؟،،(٨).  
 أدرك حافظ ان المواجهة المباشرة انتحار، لاجدوى منها لان مثل  
 هذه المواجهة تحتاج الى وعى شعبى تغييرى، اذن لابد من جهد  
 تكوينى يعيد الى النفس الانسانية فطرة الحب الأولى بعد أن شوهتها  
 عهود متتابعة من القهر والبؤس ورؤية المجازر الدموية ، والشاعر  
 يملك أهم أداة فى هذا الخصوص وهى الشعر الكونى الذى يجتاز  
 أبواب شيراز ليدق أبواب المدن المقهورة فى العالم.

ولكن ماهو هذا الجهد التكويني ؟ انه ايقاظ الوعى بجماليات  
 الحب الأولى، وليس أكثر تهذيباً للنفس الانسانية من العشق ، وهو  
 الذى عرف تجربة العشق حين أحب شاخ نبات، ثم سما به فكان  
 ابداعه وعرفانه.

،،لن يموت من يحيا قلبه بالعشق، انه مخلد دائم  
 ومن أجل ذلك فدوام ذكرى خالد فى صحف العالم،،(٩).  
 ومتابع ديوان حافظ يجد أن هذا العشق يمتزج فيه الأرضى بالسماوى  
 بحيث يضعنا الشاعر أمام جملة من الرموز الخمرية والعشقية تتجاوز  
 جفرائها معانيها العامة، وهذا الأمر يضمن للشاعر السلامة الشخصية  
 واعادة بناء الانسان الذى أفقده الزمن المرعب توازنه الداخلى، فهو  
 منقطع عن الحياة أو منقطع اليها، مشدد فى تعصبه لما يذهب اليه الى  
 أقصى الحدود، ولا سبيل الى التغيير الداخلى الا ايقاظ وعيه الجمالى  
 فهو وحده يعيد التوازن الى النفس والجسد. فهل نعتبر سونيتات  
 الشاعر الخمرية والغزلية والوصفية والصوفية مساحات خضراء ينشرها

أمام الإنسان المثقل، ويستتبت فيها النفس الانسانية من جديد نقيه الجينات، وهل نعتبرها رموزا وأنساقا إشارية لمدلولات انسانية نضالية؟ هذا هو السؤال الأكثر أهمية لمن يتصدى لدراسة شعر حافظ الشيرازى. يقول حافظ:

«وشعري عزيز الوجود كالذهب الابريز

ولكن قبول السعداء له هو الكيمياء التي أحالت قصديره ذهباً» (١٠). هذه اشارة واضحة من الشاعر الى ما يحمله شعره من جفراوات لا تنفك رموزها الا بتفاعل كيماوى بين الشعر وبين القادرين بوعيمهم الثقافى العالى على إدراك النسق الإشارى فيه ، وقد سماهم بالسعداء، وما لم تتضح هذه الانساق يبقى شعره مستغلقا له عتمة القصدير، لعل هذا الأمر هو الذى عناه جيته (Goethe) بقوله :

«ان المشتغل بديوان حافظ لا يستطيع أن يفرغ منه

وان القارئ لشعره لا يستطيع أن يتحول عنه بعيدا، نحن مضطرون اذن ان اعتمدنا هذه الفرضية، ولتنجلي مضمونات القصائد أن نراعى فى الفاظ وعبارات الشاعر أمرين : (المعنى العام + الجفرة الخاصة)، وان أسرار المعنى المجفور وجمالياته لا تلغى صور المعنى العام وجمالياته .

شعر حافظ اذن هو مجال رحب للكشف كما أشار جيته ، ولكنه لا يشكل اشكالية كما ظنّ معاصروه، غير أنهم - القدماء - لم يفهموها أو يطرحوها بهذا الشكل المعاصر، وانما فهمت وطرحت فى إطار المفهوم الدينى التقليدى : ايمان أو اتهام (زندقة)، الفريق الأول رأى فى الشاعر مؤمنا عارفا يتحدث فى الزهد والتقوى والعرفان بلغة الحب المرموزة والعادية فلقبوه بلسان الغيب وترجمان الأسرار، والفريق الثانى وجد قصائده عامرة بالفاظ الساقى والخمرة والحانة والحب وغيرها مما

يعتبر دليلاً على ادانته فى عقيدته، وقد فرغ الشاعر من هؤلاء حين خاطبهم بقوله:

«حينما تستمع الى حديث أهل القلوب فلا تقل انه خطأ  
فأنت لست من الخبراء بالكلام ، ياروحى، وهنا يكمن الخطأ»، (١١).  
وقد بلغت الخصومة أوجها ابان احتضار الشاعر فقد دعا الفريق الثانى  
الى الإمتناع عن تشييع جنازته فجادلهم الفريق الأول، ثم احتكموا  
الى أشعاره بالقرعة فخرج هذا البيت:  
لا تؤخر قدمك أو تتردد عن جنازة حافظ  
فهو غريق فى الاثم، لكنه ذاهب الى الجنة (١٢).

منطلقات الوعى الجمالى فى شعر حافظ الشيرازى :

(١) منطلق الايمان : الحاجة الجمالية هى حاجة ايمانية  
أساسية، عامة وشاملة، عميقة ونبيلة، مرتبطة بحياة المسلم الروحية  
والجمالية، وفى ظهورها الأدبى والفنى، العملى والحياتى فإن تأريخها  
ليس تأريخاً للذائقة وتحولاتها فحسب انما هو تأريخ للوظيفة الأبدية  
السامية فى صلتها بالحق والخير وحياة الانسان الذى هو خليفة الله فى  
الأرض كإمتداد للجمال الأعلى فيها.

والحاجة الجمالية تستمد رحابتها وألقها وعمقها وشمولها من  
رحابة الايمان نفسه وألقه وعمقه وشموليته، وبقدر ما يقترب الايمان من  
الكونية تصبح الحاجة الجمالية كونية، ولهذا فان الايمان المحاصر  
بالعصبية والتشدد والمواقف الدوغماتية هو كبت للحاجة الجمالية الكلية  
ولا يمكن أن يكون مولداً لجماليات محدودة ضيقة أو لجماليات سلبية  
وأفعال قبيحة.

ومسيرة حافظ تبتدى من عتبة الايمان الأولى فى التوحيد والزهد  
والتقوى من غير تعصب الى فئة أو مذهب، يقول:

,,فان لم تتمكن من قطف وردة من أطراف الأغصان  
 فكن كالعشب النامي حول الدوحة  
 وكن رجل الله الزاهد واطلب التقوى والصفاء  
 والبس من الثياب السود والبيض كما تشاء  
 وانت يا حافظ، الزم طريق الخدمة لمليك الأكوان  
 تكن طريقك وما سلكت من رجال الملك الديان،،(١٣).  
 ثم ترقى مسيرته لتصل الى درجة الايمان الكلى البعيد عن أسرار الدمى  
 الجميلة، فى هذه المرتبة يردد المرء الأسرار العلوية كما تردد البيغاء  
 الكلمات التى تلتقطها . والجمال عند حافظ مرتبط بالايمان، وأسرار  
 الجمال هى أسرار الايمان، ومن لم يعاقر - هذه الخمرة الروحية  
 لايمكن أن يدرك جفرات هذه الآلام.  
 ,,ايتها البيغاء التى تذيع الأسرار  
 انى أدعو الله ألا يجعل منقارك خاليا من السكر  
 وليبق رأسك دائما أخضر، وليبق قلبك دائما فى هناء  
 فانك قد ابدت صورة جميلة من حبيبنا المختار  
 ولقد حكيت للرفاق كلاما مغلقا  
 فياربى . . ارفع عن هذا الحديث المعمى كل حجاب وستار  
 اية نعمة تلك التى ضربها المطرب فى الحانة  
 فأخذ يرقص على نغماتها المفيق وصرير الخمار  
 تعال استمع الى حال أهل الآلام  
 فالفاظهم قليلة ومعانيهم كثيرة  
 وعدو الدين والقلب هو هذه الدمية الجميلة  
 فيارب . . ارع قلبى و احفظ دينى من أفعالها



ولا تحك أسرار الخمر والخمار لمن لا يتناولون العقار  
ولا تحك أحاديث الروح والحبيب لصور الجدار، (١٤).

ان الجمال الكلى اللامحدود فى الصورة الشعرية ، وفى القيم الشعورية  
والتعبيرية، الباعثة بإستمرار على التأمل والتفكر، عند حافظ، انما  
منطلقه ذلك الايمان الكلى اللامحدود والقائم على التأمل والتفكر  
وإلتقاط شوارد الأسرار العلوية بالقرب وحساسية العاشق المتأله.

منطلق المعرفة والعرفان : اختلف المهتمون بشعر الشيرازى  
وسيرته فى أمر تصوفه وذلك لإضطراب الاشارات التى تبشها قصائده،  
فتارة تلتقط الأذن دعوة صريحة الى الخمرة والسكر، وأخرى تصبح  
هذه الخمرة الهية معتقة، وتارة نسمع نغمات الغزل العذاب فى أوصاف  
محبوب انسانى، وأخرى تصبح هذه النغمات ملائكية سناوية فى  
المحبوب الأكبر سيد الكون، وكثيرا ماتختلط الإشارات فى لحن كونى  
تتعدم فيه الحدود بين ماهو أرضى وما هو سماوى .

ان فصل تلك الإشارات يحتاج الى حساسية فائقة فى الإلتقاط،  
وهذا لايمكن أن يتوفر الا لدى النخبة المختارة، خاصة وأن شعره يكاد  
يخلو مما يثقله من مصطلحات الصوفية انه أشبه بفراشة ربيعية ذات  
أجنحة شفافة ملوَّنة، تحملها الأنسام العلوية، فهو فى طيران دائم، يقول  
الشاعر:

«ليس يعرف شعر حافظ ومقدار أسره للقلوب

الا من يمتاز بلطف الطبع، ويعرف البلاغة الدرية»، (١٥).

وزاد العرفان عند حافظ إسلامى هوالتأمل والضراعة والخلوة فى  
الليالى المظلمة ودراسة القرآن :

وياحافظ مادامت أوردك فى زاوية الفقر وفى خلوة الليالى القاتمة  
هى الدعاء والضراعة ودراسة القرآن . . فلا تحزن

أما زاوية الفقر فهي محلة الخرابات، فيها ينقطع الشاعر بقلبه المحطم  
 الخرب الى الخمرة السماوية الحلال ووجه الحبيب العلوى،  
 ,,قل لهم : لاتحضروا الشمع فى هذا الجمع، هذا المساء  
 فقد تم قمر الحبيب فى مجلسنا واكمل البهاء  
 والخمر حلال فى مذهبنا ولكنها

محرمة بغير وجهك، يا شجرة السر والوردية الهندام

ومنذ استقر كنز التلهف عليك فى زوايا قلبى المحطم الخرب

اتخذت مقامى فى محلة الخرابات،

ان الأسر فى شعر حافظ لا يعود فحسب الى ما فيه من قيم جمالية  
 تعبيرية وتصويرية، وانما الى ما فيه من قيم شعورية وعرفانية أيضا، انه  
 لحن للنجوم، وأغنية للزهرة تدعو المسيح الى الرقص فى السماء.

,,فأى عجب يكون فى السماء اذا كانت أقوال حافظ

أغنية للزهرة تدعو المسيح الى الرقص،

وأنه أنشودة لأهل القلوب والنفوس العارفة تمنحهم سعادة الصفاء  
 والفناء، وتصف لهم الأحوال فى كثير من السفافية، وهو فى إشاراتة الى  
 أقوال بعض المتصوفة كالحلاج يتجنب اعادة العبارات التى توقع فى  
 الشبهة لأنها ان حققت غايتها الجمالية بالنسبة للمؤمنين بأفهوماتها  
 فانها تفقد جزءا من جمالياتها بالنسبة لأولئك المعارضين لأفاهيم  
 الصوفية و أقوالهم، والشيرازى يريد أن يحقق شعره جمالا كليا عاما  
 وليس مقتصرًا على فئة أو مذهب .

,,كل نكتة قلنتها فى وصف تلك الشمائل

قال من سمعها : لله در القائل

وفى البداية ظهر لى تحصيل العشق والعريضة سهلا ميسورا

ولكن روى فى النهاية احترقت فى كسب تلك الفضائل

وهاكه الحلاج على المشنقة يتغنى بهذه المسألة فى لحن عذب  
فيقول : ان الشافعى لايسأل فى هذه المسائل

ولقد قلت له : متى تعفو عن روى العاجزة

فأجاب: حينما لاتكون الحياة بيننا هى الحائل

ولقد أسلمت قلبى الى صاحبة فاتكة قاتلة محبوبة

مرضية السجايا، محمودة الخصال،،(١٦).

تخطى حافظ ماوصل اليه الصوفيون من مواجد وقيم شعورية  
وتعبيرية وتصويرية عالية الى مرتبة أعلى فقد طرخ خرقة الصوفى،  
وانفلت من أسر الكلمات المتحرقة الى عالم الغزل العلوى محلقا فيه  
بحرية كاملة ، فشعره أكثر شفافية وبساطة وقربا من جميع القلوب  
والعقول على اختلاف درجات انجذابها وفهمها والتقاطها. انه شعر  
تخطى المقامات والأحوال الصوفية الى عالم علوى رحب يعيش فيه  
الواصل حرية لاتعقلها حدود المكان والزمان، تتمتع فيه العين بضياء  
وجه المحبوب القمري، وتتعطر المشام بأريج طرّته، وتتشنف الأذن  
بأقوال الناي ونغمات العود و تغريد طائر الأسحار وصوت مطرب  
العشق، ويسكر العقل والقلب بالخمرة والساقى،

،،لافرق فى العشق بين الخانقاه والخرابات

فضياء وجه الحبيب يبدو فى كل مكان،،

لقد سار فى طريق العشق آلاف الغرباء الأشقياء من مختلف الأجناس  
والديانات، جاؤوا الى هذا العالم العلوى الرحب يسعون الى رؤية وجه  
الحبيب.

،،لم ير أحد وجهك ومع ذلك يرقبك آلاف الرقباء

ولازلت برعمة لم تفتتح، وفى انتظارك مئات من العنادل فى شقاء

وليس غريبا أننى أقبلت الى محلتك

وفى ديارك آلاف مثلى من الغرباء الأشقياء ..(١٧)

يجمع حافظ العلم والمعرفة الى العرفان ، ابتداءً بحفظ القرآن فلما أتمه لقب بالحافظ، ثم أصبح مدرسا فى مدرسة بناها وزير الشاه شجاع خواجه قوام الدين محمد ، يكسب من التدريس لقمة عيش بسيطة وكان يدرس تلامذته كشاف الزمخشري فى التفسير، مصباح الطرزى فى النحو ، طوابع الأنوار فى الحكمة والتوحيد ، مفتاح العلوم فى الأدب، حتى اذا فرغ من دروسه أسمعهم شيئا من شعره ، يقول:

،،ورسوم الشرع و أحكامه وما بها من اختلافات كثيرة

لم تغب شاردة منها عن قلبك البصير العارف

وقلمك الذى يمضغ السكر هو البيغاء الفصيحة الحديث

التي يقطر ماء الحياة من منقارها البليغ،، (١٨).

لكن معرفة حافظ ليست محدودة بالأطر الدينية، اذ تبرز فى شعره رموز تاريخية و أسطورية وفلسفية و اشارات لأحداث بعيدة وقريبة ، واحالات لبعض الحكايات الشعبية، مثل: مرآة الاسكندر، ماء الخضر كأس جمشيد، الملك بهرام واللغة الدرية، دهقان، فرهاد وشيرين، المجنون وليلي، صهيب الرومى، حكاية الصانع وصانع الحصر، طير الهمما، محمود و أياز، أهرمن، آصف بن برخيا . . الخ .

،،أريد عقارا، تصدع الرأس مرة

متى ذقت منها جرعة غبت عن نفسى

لعلى بها أنسى ولو بعض ساعة

مصائب ذى الدنيا ومن لى بما ينسى

فيا قلب لا تطلب بدنياك راحة

ودع عنك هذا الحرص ان كنت ذاحس

نقضت فجاج البيد شرقا ومغربا

فلم أر بهراما ولا دارس الرمس

فألق اذن أشراك بهرام جانبا

وخذ جام جمشيد تنل رتبة القدس»، (١٩).

هذه الاشارات غالبا ماتكتسب دلالات معرفية وعرفانية جديدة ، فمرآة الاسكندر رمز للمعرفة ، وكأس جمشيد رمز للعقل البشرى، وماء الخضر رمز للخلود بالمعرفة والعشق.

كلمات حافظ وأغانيه لاتعلم الانسان أو تفتح أمامه نوافذ العرفان فحسب، وانما تحمله على أجنحة البيان الساحر وبراق النفس الراضية المرضية، وتحلق به بعيدا نحو عالم حافل بالرؤى والصور والعواطف والأفكار، ثم تحط به فى صمت أمام الفردوس تفرع أبوابه فى همس وهدوء، لتمنحه سعادة الحياة الأبدية. يقول جيته (Goethe):  
,,اعلموا أن كلمات حافظ وقوافيه

تحلق دائما، دائما، وهى دائما فى تحليق

قارعة أبواب الفردوس فى همس وهدوء

ناشدة لنفسها حياة خالدة»، (٢٠).

منطلق الانسان : الانسان عند حافظ هو الجمال، ومنطلق كل جمال، ولأنه تعرض للمهدم بفعل القوى السياسية والاجتماعية والفكرية السائدة فهو المخصوص بيقظة الوعى الجمالى ، والانسان المسلح بهذا الوعى هو وحده الذى يستطيع أن يعيد الى العالم المضطرب توازنه.

فى حديثه عن الانسان المحبوب، والانسان العاشق، والانسان المستضعف، والانسان القوى بالحب، الناهض بوعيه الى منازل الجمال والحرية دعوة الى تمجيد الانسان . وحين يتغزل بالمحبوب، ويخلع

عليه كامل الصفات، فان فى تداخل الرموز العشقية بين الأرضى  
والسماوى اعلاء لشأن الانسان. أن أغانيه لاتبعث السلوان فحسب فى  
النفوس المقهورة، وانما تحرضها على الفعل، وتوقظ الرعب فى نفوس  
الأشقياء .

يقول جيته وقد جعل من حافظ دليلا له يهديه سواء السبيل فى  
قفار الشرق الواسعة:

،،أى حافظ ؛ ان أغانيك لتبعث السلوى

ابان المسير فى الشعاب الصاعدة الهابطة

حين يغنى حادى القوم ساحر الغناء

وهو على ظهر راحلته

فيوقظ بغناؤه النجوم فى أعالي السماء

ويوقع الرعب فى نفوس الأشقياء،،(٢١).

دافع حافظ عن الانسان المستضعف فى الأرض، وأحله مكان الصدارة

فى المجلس، واعتبره باعث الجمال والخير والعافية، قارعا على

المنعمين باب النداء والتحذير، جاعلا من الانسان المستضعف ملك

الحسان، معشوقا، يقوم بخدمته الملوك الأقوياء .

،،فيا أيها المنعم، لاتحقر أمر الضعفاء المهزيلين

فان السائل ،،المتخلف فى الطريق،، له الصدارة فى مجلس الشراب

واعتبر قدرتك غنما كبيرا حينما تكون فوق سطح الأرض

فقد أودت الأيام بالكثيرين من العاجزين الى جوف الثرى

وتعويذتك التى تدفع البلاء عن روحك وجسدك هى الدعاء الذى

يدعوه الفقير اذ يقول :

،،من ذا الذى يرى الخير فى أكداس الحصاد

ويحس بالخجل من جامع السنابل والأعواد

فيأريح الصبا، تحدثى رمزا عن عشقى لمليک الحسان

فان أقل خدامه مئات من أمثال جمشيد وكيخسرو»، (٢٢).

وهو فى اعلاؤه شأن الانسان كأعظم قيمة جمالية على الأرض يتحدث عن كل انسان على ظهر البسيطة، من غير أن يحصره بقوم أو جنس أو دين أو مذهب. لقد خلع حافظ على المحبوب الانسان كل الصفات التى تجعل منه المعشوق الكامل الأوصاف، تغنى بضياء وجهه، وعطر طرته، وسحر عينيه، ورقة خصره، ونداوة جبينه، وسنابل الطيب حول وجهه، والظل الممدود من طيات ذؤابته، ولطف خصاله، وحميد أخلاقه وغنائياته فى الحبيب مرسل يبعث ثلاث اشارات: اشارة الالهية، واشارة انسانية، واشارة تحذير موجهة الى طواغيت المال والسلطان كى لايمتهنوا الانسان المعشوق، خليفة الله فى أرضه.

هذه الاشارات ترسل فى لحن واحد هو الحب، وتقديس الحب، والدعوة الى الحب، فمن لاحبب له لا روح له والحب وحده يهذب النفوس ويعيد اليها فطرة الجمال الأولى.

»بغير الحبيب وبهائه، لاتميل الروح الى العيش وصفائه

ولا روح لمن لاحبب له، يجعله معقدا لأمله ورجائه»، (٢٣).

وهو يخشى على الانسان من الانسان الفاقد إنسانيته، من الطواغيت، وأهل الرياء الذين يظهرون التقوى الخادعة وأيديهم ملطخة بشقاء الانسان.

»فى هذه الأزمان، أرى من مصلحة الزمان

أن أحمل متاعى الى الحانة فأقيم هناك فى هناء وأمان

وأن أتناول كأس الصهباء، وأبتعد عن أهل الرياء

ثم أختار من أهل العالم، »طهارة القلب»، و»الصفاء»،

فلا يكون صاحب أو نديم غير الكتاب والابريق  
 كى لا أرى الا قليلا من بهذا العالم من أهل النفاق والتلفيق»، (٢٤)،  
 الدعوة الى تمجيد الانسان واعتباره أعلى قيمة جمالية فى الأرض  
 ظهرت بشكل أكثر حدة ومباشرة عند النسيى بما ينسجم ومذهبه  
 الحروفى، لكنها فى النهاية أودت بحياته . أما حافظ فكان انسانا  
 أدرك جوهر الانسان فدعا الى اجتلاء هذا الجوهر بعد أن غيرته  
 الحادثات، وكانت دعوته مهموسة رفيقة تسير فى موكب الجمال وجلوة  
 الطبيعة وألحانا لحب الخالد .

يقول ابراهيم أمين الشواربى فى كتابه عن حافظ ، وهو أفضل من  
 خص الشاعر فى العربية بالدراسة وترجمة أشعاره : ,, لم يكن , حافظ  
 الشيرازى، شاكيا باكيا كعمر الخيام، ولا معلما جافيا كسعدى  
 الشيرازى، ولا صوفيا نائيا كجلال الدين الرومى، بل كان انسانا راضيا  
 يستقبل الحياة بخيرها وشرها»، (٢٥) .

منطلق الجمال : قال الشاه شجاع لحافظ يوما : ,, ان واحدة من  
 غزلياتك لاتجرى على نهج واحد من أولها الى آخرها، بل اننا نجد  
 فى الغزل الواحد بعض الأبيات فى وصف الخمرة والبعض الآخر فى  
 التصوف، والباقى فى التغزل بالحبيب وهذا التلون فى أغراض الغزل  
 لايجزيه البلغاء والفصحاء ,, فأجاب حافظ : ,, ان ماقاله مولاي عين  
 الصدق والصواب، ومع ذلك فإن أشعار حافظ يتردد ذكرها فى سائر  
 الآفاق بينما لاتستطيع أن تتعدى أقوال غيره من الشعراء أبواب شيراز...  
 ونضيف الى ذلك أن شعر حافظ لم يتعشقه الناس فحسب بل أنهم  
 حتى الآن يتبركون بوجود ديوانه فى بيوتهم .

كان شعر حافظ اذن خروجا على المدرسة الغزلية التقليدية، ونزعة  
 تجديدية فى الشعر، وهذا ما استنكره الشاه شجاع . والحقيقة أن ممارسة



فعل الحرية فى عملية الإبداع هى جزء من ايمان حافظ بحرية الانسان نفسه، والجمال فى قصائده بالإضافة الى وظائفه المعرفية والعرفانية والانسانية فانه مقصود لذاته، ان القصيدة لديه وشي منمنم من الصور الملونة الحسية والروحية، ونسيج من الكلمات والعبارات المتقدمة الجديدة، ومجلى لعواطف الحب السامية، وموئل للأفكار الانسانية النبيلة والجريئة، ومهرجان للأضواء الوامضة كالحباحب تنبض فيها الطبيعة بالحياة والحركة.

من مدرسة العشق الإسلامى الفارسية تخرج كبار الشعراء أمثال :  
نظامى وسعدى وحافظ والنسيبى والفردوسى وجلال الدين الرومى . . . والخيام . . . وغيرهم، وتفرد كل منهم بعوده الخاص الذى يعرف عليه ألحان العشق ، لكن حافظا كان المجلى فى العشق، لوحاته الشعرية تماثل فى فنّها وجمالياتها تلك المنمنمات الفارسية البالغة الروعة. رأيت الى النقاش فى شيراز يمنم أبداع الصور الدقيقة على الجدار من أطيّار و أنهار و غصون دانية القطوف ورياض تخضل بالندى ومجلس شرب و سمر وفتاة يخاصرها الجمال وفتى دنف فى العشق، أم رأيت النقاش الاصفهانى فى سوق النحاسين وهو يعانى فن الطرق على النحاس، فيصور فى دائرة الصينية الصفراء أو الحمراء أبداع وأدق صور الطبيعة والجمال، ومشاهد الصيد والشراب، وأساطير الأولين . . . كذلك يفعل حافظ الشيرازى فى منمنماته الشعرية، والفرادة فى منمنماته أنها تحتوى على ثلاثة عناصر :

( ١ ) منمنمات اللفظ والعبارة ، وطريقته فى عقد الكلمات ضفائر عبارات تفجر فى اللفظة طاقات جديدة، وتولد فى القصيدة أبدا ماهو رائع وممتع وجديد .

( ٢ ) منمنمات تصويرية ووصفية تجسد مشهدا أو صورة أو منظرا طبيعيا، وتحفل باللون والحركة والرائحة والنغم.

( ٣ ) منمنمات روحية ونفسية تنقل الى دائرة الإدراك حالات عرفانية ،،صوفية،، عانتها روح الشاعر فى انتقالها عبر المقامات والأحوال، وتصل الينا هذه الإشارات الروحية فى دفء وهدوء ويسر بعيدة عن غوامض المصطلحات الصوفية . كما ترسم دقائق نفس العاشق واستجاباتها وتجولاتها تبعا لمواقف المحبوب وتحولاته فى حضوره وغيابه ، ووقوع بعض صفاته فى دائرة ادراك العاشق واعجابه. فى الحقيقة من الصعب فصل هذه الخيوط الملونة المضيئة عن بعضها، فهى مضمفورة متشابكة متفاغمة ، وبعضها من المتشابهات، والأمر ليس بالبساطة التى أوردها الشاه شجاع، وأنى له أن يدرك الجمال أو تلتقط أصابعه اللآلى من محار المحيط وهى ماتزال ملطخة بدماء عيني والده مبارز الدين .

كأن الجمال غاية يسعى اليها، ومنطلقا لمسيرته الفنية، ومركبا الى عالمه الشعري، لقد أعاد حافظ الى الجمال مكانته الأولى، وأيقظ فى الانسان وعيه الجمالى، ووعيه بجماله، ليعيد بناء الانسان الذى أفسدت ذائقته الجمالية مرارة الطغيان، وليعلن سيادة الانسان، ويرتفع به الى عالم رحب من الحرية والسعادة والجمال على أجنحة من بيانه الشعري الخالد، تحمله أنسام العشق المخضلة بالإشارات والرموز.

لم يكن حافظ الشيرازى شاعرا فخما فحسب ، وانما كان واحدا من شعراء العالم المعدودين الذين ابتنوا لأنفسهم عالما شعريا خاصا يحملون اليه الإنسان ليظل من نوافذه على الكون، ومن شرفات شعره الحوار بالحركة الدائرية يرقب الانسان جمال الحق والخلق ، يقول جيته:

وأنت يا حافظ لا تؤذن بإبتداء . . وهذه عظمتك  
ولا عهد لك بإبتداء . . . وهذه قسمتك

وشعرک کالفلك يدور على نفسه، بدايته ونهايته سيان (٢٦).  
كان حافظ انسانا أيقظ في الانسان لغة الانسان، وعارفا قاد مرديه  
على طريق المعرفة والعرفان، وعاشقا اختط للعشاق لغة جديدة في  
العشق.

من أجل هذا كله كان حافظ شيراز شاعرا كونيا خرج بشعره من  
شيراز يدق أبواب العالم، منشدا أغاني الحياة والخلود، بالرغم من أنه  
لم يغادر مدينة شيراز .

## هوامش

(١) شمس الدين محمد بن بهاء الدين المعروف بـ «خواجه حافظ الشيرازي»، والملق بـ «لسان  
الغيب وترجمان الأسرار»، شاعر شعراء إيران، طبقت شهرته الآفاق، عمل خبازا، ثم مدرسا،  
واتصل بحكام شيراز، واختلف في صوفيته، منهم من يفسر خمرياته وغزلياته حسب معانيها  
الظاهرة، ومنهم من يرى فيها معاني صوفية، فالخمرة هي الخمرة الأزلية، والساقى هو المرشد  
الحقيقي الى الله الواجب الوجود الذي يرشد «السالك» الى «طريق» الهداية ويملاؤه «الكأس»  
من التعاليم التي تدفع عنه الضلالة، والمعشوق الجميل هو الله، الكنز المخفى، وشيخ المجوس هو  
شيخ الطريقة أو المرشد، والربيع هو ربيع الأبرار، والخميلة هي روضة الصلحاء والأخيار. ولد  
حافظ سنة ٧٢٥ هـ - ١٣٢٥ م وتوفي سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٩ م .

(٢) ٢٥٤ (ديوان حافظ - الاشارة هنا وفي الاحالات الأخرى الى أرقام الغزليات في الديوان) .

(٣) استدعى تيمور لنك الشاعر حين دخل شيراز ولامه على قوله متغزلا:

لو أن ذلك التركي الشيرازي يأخذ قلوبنا بإشارة من يده

فانسى من أجل خاله الأسود أهبه سمرقند و بخارى

وقال : لقد فتحت ربع العالم بحد السيف وأنت تهبه موطنى سمرقند وبخارى لخال أسود على

وجه تركى شيرازى ؟ فأجاب حافظ معتذرا : .. انه بسبب هباتى هذه الخاطئة تجدنى يامولاي

أمضى حياتى فيما أنا فيه من فقر ومسكنة» . وقد عجب تيمور لنك بحسن تخلص الشاعر .

(٤) ٣٥ (ديوان حافظ) .

(٥) إشارات لأحداث تاريخية وصراعات بين مبارز الدين محمد وأبنائه.

- (٦) ٤٣٢ (ديوان حافظ) .
- (٧) الشواربي، كتاب حافظ الشيرازي ص ٢٣٩ .
- (٨) ١٨٧ (ديوان حافظ) .
- (٩) يروى أن حافظا كان يعشق فتاة تسمى ,, شاخ نبات,, وكانت تعرض عنه ، فدفعه ذلك واحفائه في قرض الشعر الى الإعتزال والإعتكاف عند ضريح ,, بابا كوهي ,, حيث بقى أربعين يوما يدعو الله ويتهلل الى أن زاره الإمام على (رضى الله عنه) وأطعمه طعاما سماويا وأقننه غزله المعسوف (غ : ١٣٢) :
- ليلة أمس ، في وقت السحر، أعطوني الذجاة من الألم والويل  
وتناولوني ماء الحياة وسط هذه الظلمات من الليل  
فأخرجوني عن نفسي بما انبعث من ضياء ذاته  
وتناولوني خمرا في جام يتجلى فيها بصفاته  
فياله من سحر مبارك، وبالنهار من ليلة سعيدة  
ليلة القدر هذه التي منحوني فيها البراءة الجديدة  
فدعني بعد اليوم أخول وجهي التي مرآة جماله  
فقد خيروني أنني أستطيع أن أجتلي فيها بهاء خياله  
وأى عجب اذا أصبحت هائلي القلب، نافذ الرغبات  
وقد كنت جديرا بها، وقد أعطوها لي على سبيل الزكاة  
وقد أنباني ,, هاتف الغيب,, بخير الآمال والبشريات  
فخبرني أنهم - في مقابل الجور والحفاء - قد أعطوني الصبر والثبات  
وهذا القدر من الشهد والسكر، الذي ينهل من كلامي كالقطرات  
هو أجر الصبر الذي وهبوني من أجله ,, شاخ نبات,,  
واقترنت همة حافظ بأنفاس القانمين بالأسحار  
لأنهم قد خلصوني من قيود الأيام، وغصص الأقدار  
وقد أخبره الساقى ,, المرشد ,, بأنه سيكون شاعرا عظيما مؤيدا بتأييدات عالم الغيب، وتروى  
القصة أن شاخ نبات معشوقته (ومعناها قصب السكر) مالت اليه وأحبته لكنه أصبح مشغولا عنها  
بحب الله .
- (١٠) ٢٢٤ (ديوان حافظ)
- (١١) ٨٥ (ديوان حافظ) .
- (١٢) ٤٨ (ديوان حافظ).
- (١٣) الشواربي ، كتاب حافظ الشيرازي ص ٢٥٨ .
- (١٤) ٢٤٥ (ديوان حافظ) .
- (١٥) ٢١٣ (ديوان حافظ) يروى أن الملك بهرام كان جامعا للأدب، فصيحا باللغات يتكلم يوم الحفل والاحتشاد بالعربية، ويوم العرض والإعطاء بالفارسية، وفي جلس العامة بالدرية، وعند الضرب بالصوالجة بالفهلوية، وفي الحرب بالتركية، وفي الصيد بالزابلية، وفي الفقه بالعبرية ، وفي الطب بالهندية، وفي النجوم بالرومية، وفي السفينة بالنبطية، ومع النساء بالهروية .

- (١٦) ٣٠٣ (ديوان حافظ).  
 (١٧) ٧٧ (ديوان حافظ).  
 (١٨) ٤٠٦ (ديوان حافظ).  
 (١٩) الفراتي، روائع الشعر الفارسي: يقال ان الاسكندر كانت له مرآة يرى فيها أحوال العالم، يستعملها في فتوحاته ليجمع المعلومات عن البلاد التي يفزوها، وأن جمشيد الملك كان له كأس اذا ملئت خمرا ونظر فيها يرى ما يحدث في العالم.  
 (٢٠) جيته، الديوان الشرقي، ترجمة البدوي . ص ١٤ .  
 (٢١) جيته، الديوان الشرقي، ترجمة البدوي : ص ١٤ .  
 (٢٢) ١٣٩ (ديوان حافظ).  
 (٢٣) ١٥٧ (ديوان حافظ).  
 (٢٤) ٣٤٢ (ديوان حافظ).  
 (٢٥) الشواربي، كتاب حافظ الشيرازي . ص ٣٢٣.  
 (٢٦) الشواربي، أغاني شيراز ص ٩١

